

القراءة في كتاب بصائر قرآنية

أفلا يتدبرون القرآن؟

تجلية مفهوم التدبر:

إن الخلط بين التدبر في ظل إطار المفهوم القرآني وبين التفكير في ظل معناه اللغوي والاصطلاحي، جعل عدداً من المفسرين يخلطون بين المعنيين رغم الفرق بينهما.

ولو أردنا تجلية هذا الأمر، لا بدّ من ملاحظة الاستعمال والتوظيف القرآني، لأن القرآن نفسه هو الذي أعطى للتدبر مفهوماً خاصاً وشكل دلالة الفارقة عن معنى التفكير.

فما هو المقصود بتدبر القرآن أو الآيات؟

وماذا يعني أن يتعقب القارئ أواخر الأشياء وينظر في عواقبها؟

وهل للقرآن أواخر وعواقب ليتم تأملها؟ أم ماذا؟

إن مفهوم التدبر من المفاهيم التي لم تتضح معالمها بشكل دقيق فالمعاجم اللغوية أقصى ما تذكر المعنى اللغوي العام (النظر في أواخر الأشياء والعواقب)، إضافة إلى اللبس الذي صاحب معنى المفردة في ناحية اشتقاقها من كلمة (دبر)، فالدبر هو خلاف القبل.

أسرار التوظيف القرآني المفردة التدبر:

بعد استعراض تكوّن المفهوم النظري من خلال استعراض جملة من آراء المفسرين، نستعرض الآيات الأربع التي وردت فيها صيغ التدبر، لاكتناؤه دلالة التوظيف القرآني وما يتمخض عن الأسرار الدلالية والبيانية.

الآية الأولى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

[النساء: 82].

الآية الثانية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْمَارَهُمْ﴾ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أَمْ عَلِمَ قُلُوبُ أَقْفَالُهَا ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الشَّيْطَانُ سَوَّاهُ لَكُمْ وَآمَمَ لَهُمُ ﴿[محمد: 23 - 25]

الآية الثالثة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنتَلَىٰ عَلَىٰكُمْ فَكُنْتُمْ عَلِيًّا أَعْفَا بِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿[سورة المؤمنون: 66 - 69]

الآية الرابعة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّذِكْرِ الَّذِينَ هُمْ لَكُمْ آيَاتِهِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]

خلاصة المفهوم القرآني للتدبر:

إن الآيات حثت المخاطب بأكثر من أسلوب على التدبر، كما أن التقرير والتوبيخ والإنكار المتصل بترك التدبر يؤكد أهمية التفكير والتأمل في كتاب الله، وقد شكلت كل آية زاوية من أبعاد التدبر، كي تصوغ لنا الآيات بمجموعها لوحة متكاملة تتعاضد أجزاؤها لتشكيل مفهوماً مترابطاً يتناسب والغاية التي من أجلها أنزل كتابه العزيز.

فبالتفكر العقلي تكشف قوة الإحكام والانسجام بين آيات القرآن، وتلك من مهمات العقل الذي يميز المتوائم من المختلف والمتراط من المتباعد، وحسن المعاني والأساليب والمقاصد.

وبالتفكر القلبي نفتح أقفال القلوب المانعة من وصول النور وعذب المعاني؛ ليكون القرآن تذكرة محفورة في العقل والقلب معاً.

والآيات في اختيارها القلب، التذكر، أولو الأبواب إنما ترسم صورة شاملة للتدبر، فمفهومه ليس عقلياً بحتاً، بل يتواشج القلب والعقل وما يرتبط بهما من أثر على مستوى السلوك، ليتشكل مفهومه النظري والتطبيقي الواقعي.

ويمكننا الخلوص إلى مفهوم قرآني شامل، فالتدبر هو ذلك؛ (التأمل والتفكر العميقان لمعاني القرآن وأساليبها البانية، والعناية بمعارف القرآن وأهدافه ومقاصده وآثارها على شخصية المتدبر - وواقعه، في سبيل بناء رابطة ذهنية وانفعالية وسلوكية).

فالمتدبر يتبع القرآن أينما أخذه وسار به، ويسخر كل مهارات التفكير والانفعالات لاقتفاء أثره، وبهذا الاتباع يحقق المتدبر ما جاء من أحاديث لأهل البيت (ع)، منها:

• قول النبي (ص): «ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار».

• وقوله (ص): «عليكم بالقرآن، فاتخذوه إماماً وقائداً».

• وقول الإمام علي (ع): «فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضيئ بنور هدايته».

فالمأموم لا يتقدم الإمام، والمستضيئ المهتدي لا يسبق النور، والمتبصر يدع البصائر تنير له السبل لتزيح عنه الظلمات.